" الحياء "

إن الحياء خلق الإسلام ، وطبع إيمانى ، وهوأمارة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يميط اللِّثام عن صدق إيمانه ، ومقدار أدبه ، فإذا ما رأيت مسلما يتملكه الحياء فاعرف على الفور أنه يملك إيماناً صادقاً ، وضميراً حيا يقظا . ولذا يقول النبى- ﷺ -: " إن لكل دين خلقاً ، وخلق الإسلام الحياء " [1] . وقد كانت الصرامة ملحوظة فى تعاليم اليهودية على عهد " موسى "- عليه السلام - ، وكانت السماحة ملحوظة فى تعاليم المسيحية على عهد " عيسى " - عليه السلام - . وقد تميز الإسلام بالحياء .

يقول " ابن القيم " :

هب البعثُ لم تأتنا رُسْله وجاحمة النار لم تُضرم

أليس من الواجب المستَحَق حياءُ العباد من المنْعِم ؟ [2]

والقدوة فى ذلك سيدنا " محمد " - ﷺ -. فعن " أبى سعيد الخدرى " – رضى الله عنه – قال : كان رسول الله - ﷺ -أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه " [3] . وقال رسول الله- ﷺ -: " الحياء والإيمان قُرِنَا جميعا، فإذا رُفِعَ أحدهما ، رفع الآخر " . والعلة فى ذلك أن المرء حين يفقد الحياء يتدرج من سيء إلى أسوأويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل، وقد روى عن رسول الله- ﷺ - هذا الحديث الذى يكشف فيه عن مراحل هذا السقوط الذى يبتدئ بضياع الحياء ،وينتهى بشر العواقب قال : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ فَإِذَا نزع مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتًا مُمَقَّتًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتًا مُمَقَّتًا نُزِعَتْ مِنْهُ الأَمَانَةُ فَإِذَا نزعت مِنْهُ الأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِنًا مُخَوَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِنًا مُخَوَّنًا نزعت مِنْهُ الرَّحْمَةُ فَإِذَا نزعت مِنْهُ الرَّحْمَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رجيما مُلَعَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رَجِيمًا مُلَعَّنًا نُزِعَتْ مِنْهُ ربقة الإِسْلاَمِ [4]" .فاذا نزع الحياء من المسلم لا يؤتمن على شيء إنه لا يؤتمن على مال ، ولا عرض ، ولا على موعد ، أوعهد ، أوميثاق ،

---

1 - رواه الامام " مالك " .
2 - جامحة النار يريد جهنم . تضرم أى توقد ، رواه الحاكم .
3 - رواه مسلم .
4 - رواه ابن ماجة .

أوعلى حفظ وديعة أوأمانة ، وتحقيق مطامعه ، وملذاته ، ويوم يبلغ الإنسان هذه المراحل يكون بذلك قد أفلت من قيود الدين ، وانخلع من ربقة الإسلام .

فالحياء خير كله . ومن ذلك قول الحق – سبحانه وتعالى – في هذا الخلق الكريم : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة مريم:٢٣]. والمعنى : فألجأها المخاض وألم الطلق ، وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ، فقالت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " : ياليتنى مت قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يعرف ولا يذكر وهذا القول لإبن عباس ، وقتادة – رضى الله عنهم – ويعنى " يا ليتنى مُتُّ " . لم أخلق ولم أكُ شيئاً . يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى " : " عرفت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها وأنها حملت دون أن تقترف إثما ، أوترتكب منكراً ، أوتجترح سيئة، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ولذلك صدر منها هذا القول : " يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً " . أي قبل هذا الحال أي لم أخلق ولم أك شيئا. ولذلك أتخذت المكان القاصى النائى والبعيد حياءً من قومها ، ولاغور فهى من سلائل بيت النبوة ولأنها استشعرت منهم الاتهام والريبة والشك ، فرأت أن لا تراهم ، وأن لا يروها حياء منها وأدباً، وخوفا من توجية اللَّوم اليها .

ويقول " صاحب اللطائف " : " أَلْجَأَها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جزع النخلة . ولَّما أَخذها الطَلْقُ ، ودَاحَلَهَا الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسان العَجز ، وقالت : " قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا " . ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بسلان الفُجْرِ؛ وينسبونها إلى الفحشاء . ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصيبَهم بِسببَها عقوبةً . ويقال قالت : "يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا" حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن " عيسى " ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً! .

ويقال "يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا" : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي ، ولم تستقبلني هذه الخشونةُ في الحالةِ التي لَحِقَتْنِي . ويقال "يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا" : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب . وفي قوله " فأجأها المخاض " . يقال : جاء ، وأجاء لغتان والمعنى واحد والأصل في " جاء " أنه يتعدى بنفسه للواحد و" أجاء" يتعدى لأثنين لأن استعماله قد تغير بعد النقل فصار بمعنى " ألجأه إلى كذا " . وقيل إن مريم – عليها السلام

حين اتكأت إلى جزع النخلة اليابسة أخضر، أطلع الجريد والخوص، والتمر رطباً فى وقت واحد. كما أن حمل عيسى وولادته وتصويره في وقت واحد.

والمشهور أن ولادة "- عيسى عليه السلام- كانت في " بيت لحم " وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعت إلى"بيت المقدس"، فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد وهى الآن موجودة بدار " مجرم بيت المقدس " ، ثم بعد ايام توجهت به إلى " بحر الأردن " فغمسته فيه. وهواليوم الذى يتخذه النصارى عيداً ويسمونه " عيد الغطاس"، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست، فلذلك يغطسون في كل ماء. ومن زعم أنها ولدت في مصر " بكورة " يعنى ببلد " أهناس " فلم يثبت ذلك. و" أهناس " هى المسماة بالبهنسا " وقيل " أهناس " قرية بجانب البهنسا وبجوارها.

وإن الاستحياء أنساها بشارة الملائكة بسيدنا " عيسى "- عليه السلام- لذلك تمنت الموت. وقد اختلف المفسرون فى فترة حمل عيسى – عليه السلام - . فالجمهور أنها حملت به تسعة اشهر. ويقول عكرمة – رضى الله عنه – أى مدة الحمل ثمانية أشهر، قال : "ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر. وسئل " ابن عباس – رضى الله عنهما – عن حمل "مريم " فقال : " لم يكن إلاَّ أن حملت فوضعت. وكان معها فى المسجد رجل صالح من أقاربها يقال له" يوسف النجار"، فقال لها :" يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ.

قالت: وما هو؟قال: هل يكون قَطْ شَجَرٌ من غير حَبّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك : "هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟ " فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر" وهل خلق يكون من غير أب؟ " . فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصيّاً، أي: قاصيًا منهم بعيداً عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها. حياء وهو خُلُق القرآن الكريم.

وفي الآية جواز تمنى الموت إذا خشى المسلم " الفتنة " واجعل الموت راحة لنا من كل شر. هذا دعاء الصالحين. وذلك مثل قول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة القصص:٢٥]. يعنى : واضعة كُمْ ذراعها على وجهها حياءً منه، فأجابها في نفسه منكراً أخذ الأجرة، كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها، فمشت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقيها،

فقال لها:"أمشى خلفى ودلينى على الطريق ففعلت إلى أن جاء أباها " شعيب " – عليه السلام – وعنده عشاء ، فقال له :"أجلس . فتعشى . قال : أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وإنا أهل بين لا نطلب على عمل الخير عوضا . قال : " لا" عادتى وعادة ابائى: إكرام الضيف ، وأطعام الطعام ، فأكل وأخبره بحاله ، فلما جاءه ، وقص عليه القصص قال له : " لا تخف فإنه لا سلطان لفرعون على "مدين " . والمراد : بالحياء هنا شدته .

ويقول " ابن كثير " : " ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ....﴾ أي: مشي الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر- رضي الله عنه- أنه قال: كانت مستترة بكم ذراعها . قال عمر رضي الله عنه : جاءت تمشي على استحياء، قائمة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع دلاجة ، خرّاجة ، ولاجة. والسلفع من النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. { .... قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ....} ، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً ، وطلبته في أدب ، ووجهت الدعوة باسم أبيها حتى لا يوهم ريبة متوهم أنها دعته لنفسها إعجاباً به وبقوته وشهامته ، ففعلت ذلك دفعاً للتهمة والريبة . هذا هوخلق المسلم في القرآن الكريم ، فواجب علينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاق القرآن وهودستورنا حتى نسعد في جميع حياتنا،ونكون من الفائزين في الدارين[1] .

ويقول رسول الله- ﷺ -: " الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار" [2] . وفي الأثر: " ما أحببت أن تسمعه آذناك فأته ، وما كرهت أن تسمعه أذناك فأجتنبه " . وعن عائشة – رضى الله عنها قالت – أن رسول الله- ﷺ- قال لها :" يا عائشة ، لوكان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً ، ولوكان البذاء رجلاً لكان رجل سوء " [3] . وقد عاب المشركين على الإسلام تحقير الأصنام ، وأنها لا تخلق " ذبابة " فبين الله تعالى أنه الحق أن تهاجم أصنامهم ، وتسب آلهتهم . فقال الله- سبحانه وتعالى- : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[سورة البقرة:٢٦] . فإبراز الأصنام فى هذه الصورة من العجز والضعف حق .﴿ .... وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ....﴾[سورة

١- مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٤٨.
٢- رواه احمد .
٣- رواه الترمزى .

الأحزاب:٥٣]. وفي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ، ولا يخشى بأساً ، ولا يعمل حساباً للأئِمة . والحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون من الله- عزوجل- فنحن نطعم من خيره ، ونتنفس في جوه ، وندرج في أرضه وملكه ، ونستظل بسمائه ، ومع ذلك نعصيه ، والبعض يكفر به وآخر يفسد فى الأرض ، ومع ذلك تغمرنا ألؤه ، وتغطينا نعمه ويعمنا خيره ورزقه من المهد إلى اللحد . وعن " ابن مسعود " – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله- ﷺ -: "استَحْيُوا منَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء ». قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ للَّه. قَالَ « لَيْسَ ذَلكَ وَلَكنْ مَن اسْتَحَى منَ اللَّه حَقَّ الْحَيَاء فَلْيَحْفَظ الرَاسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظ الْبَطْنَ وَمَا وعى وَلْيَذْكُر الْمَوْتَ وَالْبلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخرَةَ ترك زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ فَقَد اسْتَحْيَا منَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء " [١]. ويقال : إن هذه العظة للصحابى الجليل " عبد الله بن مسعود " – رضى الله عنهما – نستوعبا الكثير من آداب الإسلام العظيمة ، ومناهج الفضيلة والحياء بهذا الشمول هوالدين كله .

قال رسول الله- ﷺ -: " الإِيمَانُ بِضْعٌ أَوبِضْعٌ وستون شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الإِيمَانِ " [٢]. وفي الأثر : "استحى من الله كما تستحى من أولى الهيبة فى قومك"."الحياء خير كله "[٣] . وقال رسول الله- ﷺ -: " إذا لم تستح فأصنع ما شئت " . [٤]

1- رواه الترمزى .
2 - رواه البخارى .
3 - رواه مسلم .
٣ - تفسير الطبرى جـ ٢٠ ، ص ٣٩ .
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ١١٦ – ١١٧ ، ص ٣٨٤ .
- تفسير المراغى جـ ٦ ، ص ص ٤٤ – ٤٥ ، جـ ٧ ، ص ٤٨ .
- الفتوحات الالهيه وحاشية الجمل جـ ٣ ، ص ١٤ – ١٥ – ٢٢ .
- اللطائف للقشيرى جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
- مختصر ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٤٨ .
- موطأ " مالك " .
- صحيح مسلم
- صحيح البخارى .
- الحاكم .
- الترمزى .
- الطبرى .
- ابن ماجة .